

في الاجتماع المعنوي

نشأة اللغة الإنسانية

للدكتور علي عبد الواحد وافي

استأزت هذه المشكلة بقسط غير يسير من نشاط الباحثين في مختلف العصور ، وذهب العلماء بصدها مذاهب شتى يرجع أهمها إلى أربع نظريات :

(النظرية الأولى) تقرر أن الفضل في نشأة اللغة الإنسانية يرجع إلى إلهام الهنسي هبط على الإنسان فملمه للنطق وأسماء الأشياء . وقد ذهب إلى هذا الرأي في العصور القديمة الفيلسوف اليوناني هيراكليت Héraclite^(١) ، وفي العصور الوسطى بعض الباحثين في فقه اللغة العربية ، كابن فارس في كتابه الصحاح^(٢) . وفي العصور الحديثة طائفة من العلماء على رأسها الأب لامي Lami في كتابه فن للكلام L'Art de parler^(٣) . والفيلسوف الفرنسي دو بونالد De Bonald في كتابه التشريع القديم primitive^(٤)

ولا يكاد أصحاب هذه النظرية يقدمون بين يدي مذهبهم دليلاً بمطلبه . أما أدلتهم التقليدية ، فبعضها يحتمل التأويل ، وبعضها يكاد يكون دليلاً عليهم لا لهم . فالأولاد لهذا الرأي من باحثي العرب يعتمدون على قوله تعالى « وعلم آدم الأسماء كلها » وهذا للنص ، كما ترى ، ليس صريحاً فيما يدعون ، إذ يحتمل أن يكون معناه — كما ذكر ذلك ابن جني في كتابه الخصائص وذهب إليه كثير من أئمة المفسرين — أن الله تعالى أقدر الإنسان على وضع الألفاظ . أما القائلون بهذه النظرية من الفرنجة ،

(١) فيلسوف إمبريقي من المدرسة اليونانية ولد باينيزيا سنة ٤٨٠ ق م ونسب هذا الرأي له ليست يقينية .

(٢) أنظر الصحاح صفحات ٥ - ٧ وقد مال إلى هذا الرأي كذلك ابن جني في كتابه الخصائص (أنظر ص ٤٥) وإن كان قد رد في أول الفصل على ما يمتد عليه القائلون به ذاهباً إلى أنه لا ينض دليلاً لهم .

(٣) هو دوم فرانسوا لامي Don François Lami ولد سنة ١٦٣٦ وتوفي سنة ١٧١١ وقد قام بتدريس الفلسفة في كثير من المآهد الدينية بفرنسا . وإليه يرجع الفضل في نشر آراء الفيلسوف ديكارت بهذه المآهد (٤) ولد سنة ١٧٥٤ وتوفي سنة ١٨٤٠ وله مؤلفات كثيرة في السياسة والفلسفة .

فيتمدون على ما ورد بهذا الصدد في سفر التكوين إذ يقول : « والله خلق من الطين جميع حيوانات الحقول وجميع طيور السماء ، ثم عرضها على آدم ليرى كيف يسميها ، وليحمل كل منها الاسم الذي يرضه له الإنسان ، فوضع آدم أسماء لجميع الحيوانات المستأنسة ولطيور السماء ودواب الحقول^(١) »

وهذا النص كما ترى لا يدل على شيء مما يقول به أصحاب هذه النظرية ؛ بل يكاد يكون دليلاً عليهم . ومهما يكن من شيء ، فلا صلة للدليل للتقليد بمقام البحث العلمي

(للنظرية الثانية) تقرر أن اللغة ابتدعت واستحدثت بالتواضع والاتفاق وارتجال ألفاظها ارتجالاً . وقد ذهب إلى هذا الرأي في العصور القديمة ديموكريت Démocrite (من فلاسفة اليونان في القرن الخامس ق م) ، وفي العصور الوسطى كثير من الباحثين في فقه اللغة العربية ، وفي العصور الحديثة الفلاسفة الإنجليزي آدم سميث وريد ودجلدستيوارت Adam Smith, Reid, Dugald Stewart

وليس لهذه النظرية أي سند عقلي أو نقلي أو تاريخي . بل إن ما تقرره يتعارض مع النواميس العامة التي تسيطر عليها النظم الاجتماعية . فمهدنا بهذه النظم أنها لا ترتجل ارتجالاً ولا تخلق خلقاً ، بل تتكون بالتدريج من تلقاء نفسها . هذا إلى أن التواضع على التسمية يتوقف في كثير من مظاهره على لغة صوتية يتفاهم بها المتواضعون^(٢) . فإي جعله أصحاب هذه النظرية منشأ للغة يتوقف هو نفسه على وجودها من قبل^(٣)

فلسنا هنا بصدد نظرية جذرية بالمناقشة ، بل بصدد تخمين خيالي وفرض عقيم يحمل في طيه آية بطلانه . وقد ذهب المتصبون له في تصور منشأ اللغة مذاهب ساذجة غريبة تدل أبلغ دلالة على مبلغ انحرافه عن جادة الصواب ونطاق المعقول . وإليك نبذة مما يقوله بعضهم بهذا الصدد : « إن أصل اللغة لا بد فيه من الواضحة . وذلك كأن يجتمع حكيمان أو ثلاثة فصاعداً فيحتاجوا إلى الإبانة عن الأشياء فيضموها لكل منها سمة ولفظاً يدل عليه وينبئ عن إحضاره أمام البصر . وطريقة ذلك أن يقبلوا مثلاً

(١) أنظر الآيتين ١٩ و ٢٠ من الجزء الثاني من سفر التكوين

(٢) سيأتي توضيح هذا في النظرية الثالثة

(٣) انظر في الرد على هذه النظرية :

ففي دلالتها على ممان كلية برهان قاطع على أن اللغة الإنسانية الأولى لم تكن نتيجة تواضع واتفاق ، كما يذهب إلى ذلك أصحاب النظرية الثانية السابق ذكرها ، لأن التواضع فضلاً عن تعارضه مع طبيعة النظم الاجتماعية كما تقدمت الإشارة إلى ذلك ، يتوقف هو نفسه على وسيلة يتفاهم بها المتواضعون . وهذه الوسيلة لا يعقل أن تكون اللغة للصوتية ، لأن المفروض أن المتواضع عليه هو أول ما نطق به الإنسان من هذه اللغة ؛ ولا يعقل كذلك أن تكون لغة الإشارة ، لأننا بصدد ألقاظ ندل على ممان كلية أي على أءور معنوية يتعذر استخدام الإشارة الحسية فيها

وفي عدم وجود تشابه بين أصواتها وما تدل عليه برهان قاطع على أن اللغة الإنسانية لم تنشأ من محاكاة الإنسان لأصواته الطبيعية (أصوات التعبير الطبيعي عن الانفعالات) وأصوات الحيوانات والأشياء كما يذهب إلى ذلك أصحاب النظرية الرابعة التي سنذكرها قريباً

وإذا بطل أن اللغة الإنسانية كانت نتيجة تواضع واتفاق ؛ وبطل كذلك أنها نشأت عن محاكاة الإنسان لأصواته الطبيعية وأصوات الحيوانات والأشياء ، لم يبق إذن تفسير معقول لهذه الظاهرة غير التفسير السابق ذكره : وهو أن الفغزل في نشأة اللغة يرجع إلى غريزة زود بها الإنسان في الأصل للتعبير عن مدركانه بأصوات مركبة ذات مقاطع ، كما زود باستمداد فطري للتعبير عن انفعالاته بمركات جسمية وأصوات بسيطة^(١) وهذه النظرية على ما فيها من دقة وطرافة وعمق في البحث ، فأسدة من عدة وجوه :

١ - فهي لا تحمل شيئاً من المشككة التي نحن بصدددها ، بل تكفي بأن تضع مكانها مشكلة أخرى أكثر منها غموضاً ، وهي مشكلة « لغريزة للكلامية »

٢ - هذا إلى أن ما تقرره يعتبر - من بعض الوجوه - من قبيل تفسير الشيء بنفسه . فكل ما تقوله يمكن تلخيصه في العبارة الآتية : « إن الإنسان قد لفظ أصواتاً مركبة ذات مقاطع ودلالات مقصودة لأنه كانت لديه قدرة على لفظ هذا النوع من الأصوات » وهذا ، كما لا يخفى ، مجرد تقرير للمشككة نفسها في صيغة أخرى

٣ - على أن قدرة الإنسان الفطرية أو المكتسبة على لفظ

على شخص ويومثوا إليه قائلين : إنسان ، إنسان ، إنسان ؛ فنصبح هذه الكلمة اسماً له . وإن أرادوا سمته عينه أو يده أو رأسه أو قدمه ، أشاروا إلى العضو وقالوا : يد ، عين ، رأس ، قدم ... ويسرون على هذه الوتيرة في أسماء بقية الأشياء ، وفي الأفعال والحروف وفي الممان السككية والأمور المعنوية نفسها^(١) . وبذلك تنشأ اللغة المعربية مثلاً . ثم يخطر بعد ذلك لجماعة منهم أن يضموا كلمة « مراد » بدل إنسان ، وكلمة « سر » بدل رأس ... وهكذا ، فتنشأ اللغة الفارسية ...^(٢)

(النظرية الثالثة) تقرر أن الفضل في نشأة اللغة يرجع إلى غريزة خاصة زود بها في الأصل جميع أفراد النوع الإنساني ؛ وأن هذه الغريزة كانت تحمل كل فرد على التعبير عن كل مدرك حسي أو معنوي بكلمة خاصة به ، كما أن غريزة « للتعبير للطبيعي عن الانفعالات »^(٣) تحمل الإنسان على القيام بمركات وأصوات خاصة (انقباض الأسارير وانبساطها ، ووقوف شعر الرأس ، الضحك ، البكاء... الخ) كلما قامت به حالة انفعالية معينة (للغضب ، الخوف الحزن ، السرور... الخ) ؛ وأنها كانت متحدة عند جميع الأفراد في طبيعتها ووظائفها وما يصدر عنها ؛ وأنه بفضل ذلك اتحدت المفردات وتشابهت طرق التعبير عند الجماعات الإنسانية الأولى فاستطاع الأفراد التفاهم فيما بينهم ؛ وأنه بعد نشأة اللغة الإنسانية الأولى لم يستخدم الإنسان هذه الغريزة ؛ فأخذت تنقرض شيئاً فشيئاً حتى تلاشت كما انقرض لهذا السبب كثير من القرائن الإنسانية القديمة . ومن أشهر من ذهب هذا المذهب العلامة الألماني مكس مولر Max Müller والعلامة للفرنسي رينان Renan وقد اعتمد مكس مولر في تأييد هذه النظرية على أدلة مستمدة من البحث في أصول للكلمات في اللغات الهندية الأوربية . فقد ظهر له أن مفردات هذه اللغات ترجع إلى خمائة أصل مشترك ؛ وأن هذه الأصول تمثل اللغة الأولى التي انشعبت منها هذه الفصيلة ، فهي لذلك تمثل اللغة الإنسانية في أقدم عهودها . وتبين له من تحليل هذه الأصول أنها تدل على ممان كلية ؛ وأنه لا تشابه مطلقاً بين أصواتها ، وما تدل عليه من فعل أو حالة .

(١) لم يبين القائلون بهذه النظرية كيف أمكن التواضع على الكلمات الدالة على الأفعال والحروف والدان السككية ، مع أن هذه الأمور ليس لها في الخارج مدلول حسي يشير إليه المتواضعون

(٢) نقل من ابن جني بصرف : الخصائص صفحتي ٤٢ و ٤٣

(٣) أنظر في شرح هذا التعبير كلفي بحدود ٣٥٣

(١) أنظر الدرس التاسع من كتاب علم اللغة لمكس مولر

الإنسانية الأولى كما يذهب إلى ذلك مكس مولر ؛ بل إنها بقايا لغة حديثة قطعت شوطاً كبيراً في سبيل الرق واللكال ، ولم تعمل إليها الأمم الإنسانية إلا بعد أن ارتقت عقليتها ونهضت تفكيرها . ويذهب بعضهم إلى أبعد من هذا فيقرر أنها مجرد أصول نظرية ، وأنها لم تكن يوماً ما موضوع لغة إنسانية^(١)

(النظرية الرابعة) تقرر أن اللغة الإنسانية نشأت من الأصوات الطبيعية (أصوات التعبير الطبيعي عن الانفعالات ، أصوات الحيوانات ، أصوات مظاهر الطبيعة ، الأصوات التي تحدثها الأفعال الإنسانية وغيرها ... الخ) وسارت في سبيل الرق شيئاً فشيئاً تبعاً لارتقاء العقلية الإنسانية وتقدم الحضارة واتساع نطاق الحياة الاجتماعية وتعدد حاجات الإنسان ... وما إلى ذلك . وقد ذهب إلى هذا الرأي معظم المحدثين من علماء اللغة وعلى رأسهم العلامة وتني Whitney^(٢) . وذهب إلى مثله من قبل هؤلاء كثير من فلاسفة المصور القديمة ومن مؤلفي العرب بالمصور الوسطى . فقد تحدث عنه ابن جنى (المتوفى سنة ٣٩٢ هـ أي من نحو ألف سنة) بكتابه الخصائص في أسلوب يدل على قدمه وكثرة القائلين به من قبله^(٣)

فبحسب هذه النظرية يكون الإنسان قد افتتح هذه السبيل بحكاية أصواته الطبيعية التي تعبر عن الانفعالات كأصوات الفرح والحزن والرعب ... وما إليها ، وبكافة أصوات الحيوان ومظاهر الطبيعة والأشياء كدوى الرياح وحنين الرعد وخريف الماء وحفيف للشجر وجمجمة الرحي وقمعة الشنان وصرير الباب وصوت القطع والضرب ... وهلم جرا . وكان يقصد من هذه الحكاية للتعبير عن الشيء الذي يصدر عنه الصوت المحاكي أو عما يلازمه أو يصاحبه من حالات وشئون ، واستخدم في هذه الحكاية ما زود به من قدرة على لفظ أصوات مركبة ذات مقاطع ؛ فكان يحاكي هذه الأصوات البهمة بوضعها في أصوات مقطعية قريبة منها (فقه مثلاً للتعبير عن صوت الضحك) . وكانت

(١) هذا هو رأي الأستاذين سيس وبريال Sayce, Bréal أنظر في ذلك Ribot, op. cit. 81,82
(٢) من أشهر المحدثين من علماء اللغة الإنجليزية وله في هذا العلم مؤلفات كثيرة منها « حياة اللغة » (ظهر سنة ١٨٧٥) و « اللغة ودراساتها » (ظهر سنة ١٨٦٧)

(٣) أنظر الخصائص صفحتي ٤٤ ، ٤٥ : « وذهب بعضهم إلى أن أصل اللغات كلها إما هو من الأصوات السهوية كدوى الرياح وحنين الرعد وخريف الماء وشحيج الحار ونقيق الثراب وصهيل الثرس وزرب الطي ، ثم تولدت اللغات عن ذلك نياً بعد . وهذا هندي وجه صالح ومذهب متبيل » .

هذا النوع من الأصوات ليست موضوع للبحث ، وإنما الذي يهمنا هو الوقوف على أول مظهر لاستئلال هذه القدرة والانتفاع بها في تكوين الكلام الإنساني ؛ أي البحث عن الأسلوب الذي سار عليه الإنسان في مبدأ الأمر في وضع أصوات معينة لمسميات خاصة ، والكشف عن العوامل التي وجهته إلى هذا الأسلوب دون غيره

٤ - وأكبر خطأ وقعت فيه هذه النظرية هو ذهابها إلى أن الأصول الخمسة السابقة ذكرها تمثل اللغة الإنسانية الأولى . فهذه الأصول ، كما تقدم ، تدل على معان كلية . ومن الواضح أن إدراك المعاني الكلية يتوقف على درجة عقلية راتية لا يتصور وجود مثلها في فاتحة النشأة الإنسانية . وها هي ذى الأمم الأولية التي تمد أصدق ممثل للإنسانية الأولى تؤيد ما تقول . فقد أجمع علماء الأنثروبولوجيا الذين قاموا بدراسة هذه الأمم بأمريكا وأستراليا وأفريقيا وغيرها على ضعف عقليتهم بهذا الصدد وعجزها عن إدراك المعاني للكلية في كثير من مظاهرها . وقد كان لهذه العقلية صدى كبير في لغاتهم ؛ فلا تكاد نجد في كثير منها لفظاً يدل على معنى كلى . ففي لغة الهنود الجر مثلاً يوجد لفظ للدلالة على شجرة البلوط الحمراء ، وآخر للدلالة على شجرة البلوط السوداء ، وهكذا ؛ ولكن لا يوجد أي لفظ للدلالة على شجرة البلوط ؛ ومن باب أولى لا يوجد أي لفظ للدلالة على الشجرة على العموم^(١) . وفي لغة الهورونيين Hurons (من السكان الأصليين لأمريكا الشمالية) يوجد لكل حالة من حالات الفعل التمعدى لفظ خاص بها ؛ ولكن لا يوجد للفعل نفسه لفظ يدل عليه . فيوجد لفظ للتعبير عن الأكل في حالة تملقه بالخيز ، ولفظ آخر للتعبير عنه في حالة تملقه باللحم ، وثالث في حالة تملقه بالزبد ، ورابع في حالة تملقه بالوز . وهكذا ؛ ولكن لا يوجد فعل ولا مصدر للدلالة على الأكل على العموم أو الأكل في زمن ما . ولغة السكان الأصليين بجزيرة تسمانيا Tasmania (بقرب أستراليا) لا يوجد من بين مفرداتها لفظ يدل على الصفة ؛ فإذا أرادوا وصف شيء لجثوا إلى تشبيهه بأخر مشتمل على الصفة المقصودة ؛ فيقولون مثلاً فلان كشجرة كذا ، إذا أرادوا وصفه بالطول^(٢)

ولذلك يرى المحدثون من علماء اللغة ، ومن علماء الاجتماع اللغوي أن الأصول الخمسة السابقة ذكرها لا تمثل في شيء اللغة

(١) أنظر : Ribot : Evolution des Idées Générales, P. 110.

(٢) أنظر : Ribot : op. cit. 173, 174.

ومن أدلتها كذلك أن ما تقرره بصدد خصائص اللغة الإنسانية في مراحلها الأولى يتفق مع ما نعرفه عن خصائص اللغات في الأمم الأولية . ففي هذه اللغات تكثر الفردات التي تشبه أصواتها أصوات ما تدل عليه، ولتقص هذه اللغات وسداجتها وإبهامها وعدم كفايتها للتعبير لا يجد المتكلمون بها مناصاً من الاستعانة بالإشارات اليدوية والجسمية في أثناء حديثهم لتكملة ما يفترق إليه من عناصر وما يموزه من دلالة^(١)

ومن المقرر أن هذه الأمم، ليمدها عن تيارات الحضارة وبقائها بمزج عن أسباب النهضة الاجتماعية تمثل إلى حد كبير حالة الإنسانية في عهدها الأولى .

عبر الروامر وافي

لسانسه ودكتور في الآداب من جامعة السربون

(١) انظر ما كتبناه في هذا الصدد بحد ٣٥٢

منقذ الآف الأحياء

M. Arab. 147

إن نحرأ من العشرين ألف شخص يتفنون الآن وكل سنة في إيطاليا بفضل انجلو تشالي الاختصاص الشهير الملاريا .

بعد الاكتشاف الذي توصل إليه روس حوالي سنة ١٩٠٠ في الهند الانجليزية وكراسي في إيطاليا هذا الاكتشاف الذي سمح بحرقه الدور الذي تقوم به طفيلية الملاريا فان كراس هو أول من توصل إلى استنتاجات عملية . فالملاريا كانت تسبب في بلاده ٢٠٠٠٠٠ وفاة كل سنة وكان عدد الاصابات بالمرض يفوق بكثير فان كراسي كرس حياته ساهيا لتغيير هذه الحالة فظن أولا أنه يستطيع أن يتوصل إلى نتائج جيدة بالتجائه إلى وسائل ميكانيكية بحتة مثل حواجز مشبكة وناموسية ونجفيف لكنه ما لبث أن عرف أن هذا غير كاف وتوصل حينئذ إلى استعمال الكينا كدواء وان فكل الناس الساكنين في منطقة عمت فيها الحميات والملاريا رأوا أنفسهم في مناعة من هدى هذا المرض بأخذ الكينا بانتظام .

إن تشالي الذي كان عضواً في البرلمان هو الدافع إلى التصريح الايطالي الشهير بخصوص الملاريا وهو التصريح الذي يمكن أن يكون مثلاً لعدد كبير من البلدان الأخرى فنذ سنة ١٩٠٤ يلزم هذا القانون كبار اللاك والمدربين أن يوزعوا الكينا مجاناً على سبيل الوقاية والشفاء فنقل الحرب الكبرى كان يوزع هكذا كل سنة في إيطاليا ٣٠٠٠٠ كيلو جرام كينا .

ثم أعلنت الحرب سنة ١٩١٤ وكان أن مات تشالي بعد أن رأى الوفيات بالملاريا يتقمن من ٩٠ بالمائة بفضل تدبيره .

تألسلوب الذي أشار به تشالي لخاربة الملاريا باستعمال الكينا قد استعملته لجنة الملاريا بجمعية الأمم وأوصت بأخذ ٤٠٠ مليون كيلوجرام يوميا من الكينا على سبيل الوقاية طول مدة الحميات حيث يخاف الناس من الهدوى .

وإذا أصيب الانسان بالمرض فيجب أخذ جرام واحد أو جرامين وستجرام من الكينا كل يوم مدة خمسة أو سبعة أيام ولا لزوم في هذه الحالة للمعالجة التكميلية فليجئة الملاريا تصف على الأخص استعمال الكينا بأن هذا العلاج لا ضرر منه حتى بين أيدي من يجهلون استعماله .

لنته في مبدأ أمرها محدودة الألفاظ ، قليلة التنوع ، قريبة الشبه بالأصوات الطبيعية التي أخذت منها ، قاصرة عن الدلالة على المفصود . فكان لا بد لها من مساعد يصحها فيوضح مدلولاتها ويعين على إدراك ما ترى إليه . وقد وجد الإنسان خير مساعد لها في الإشارات اليدوية والحركات الجسمية، وهذا المساعد الإرادي قد نشأ هو نفسه عن الحركات النظرية التي تصحب الانفعالات ؛ فكان في مبدأ أمره مجرد محاكاة إرادية لهذه الحركات ؛ ثم توسع الإنسان في استخدامه فحكي به أشكال الأشياء وحجومها وصفاتها ... وما إلى ذلك ، فازدادت أهميته في الحديث ، وسد فراغاً كبيراً في اللغة الصوتية . ثم أخذت هذه اللغة تنبع نطاقها تبعاً لارتقاء التفكير ، واتساع حاجات الإنسان ومظاهر حضارته . وتستغني شيئاً فشيئاً عن مساعدة الإشارات ، وتباعد عن أصولها الأولى تحت تأثير عوامل كثيرة كالتطورات اللغوية التي تمتد للصوت ، وأعضاء النطق الإنساني وكلمات المجاورة والمشابهة التي تمتد للدلالات ... وما إلى ذلك وهذه للنظرية هي أدنى نظريات هذا البحث إلى الصحة وأقربها إلى العقول ، وأكثرها اتفاقاً مع طبيعة الأمور وسنن النشوء ، والارتقاء الخاضعة لها للكائنات وظواهر الطبيعة والنظم الاجتماعية ولم يبق أي دليل قاطع على خطأ هذه النظرية ، ولكن لم يبق كذلك أي دليل قاطع على صحتها ، وكل ما يذكر لتأييدها لا يقطع بصحتها وإنما يقرب تصورنا ويرجع الأخذ بها

ومن أهم أدلتها أن المراحل التي تقررها بصدد اللغة الإنسانية تتفق في كثير من وجوهها مع مراحل الارتقاء اللغوي عند الطفل ، فقد ثبت أن الطفل في المرحلة السابقة لمرحلة الكلام ، يلجأ في تعبيره الإرادي إلى محاكاة الأصوات الطبيعية (أصوات التنبير للطبيعي عن الانفعالات ، أصوات الحيوان ، أصوات مظاهر الطبيعة ، أصوات الأفعال ... الخ) فيحاكي للصوت قاصداً التعبير عن مصدره أو عن أمر يتصل به ؛ وثبت كذلك أنه في هذه المرحلة وفي مبدأ مرحلة الكلام يعتمد اعتماداً كبيراً في توضيح تعبيره الصوتي على الإشارات اليدوية والجسمية .

ومن المقرر أن المراحل التي يجتازها الطفل في مظهر ما من مظاهر حياته تمثل المراحل التي اجتازها للنوع الإنساني في هذا المظهر^(١)

(١) يطلق على هذه النظرية اسم « نظرية التلغيس الدم » وقد تكلنا منها بتفصيل في كتابنا « في التربية » صفحة ١٥ ونوابها